آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السابعة : العددان الخامس والعشرون والسادس والعشرون - ربيع الأول ١٤٢٠ هـ - تموز (يوليو) ١٩٩٩م

■ كتاب الحلم والعلم لآدم بن أبي إياس العسقلاني - ٢٢٠هـ

* KITAB AL HILM WAL 'ILM, by Adam bin Abi Iyas Al 'Askalani - 220 A.H. - copy from the 7th century after Hijra.

الطريق إلى حطين (٥٨٣هـ = ١١٨٧م) دراسة في مفهوم تكامل الجهد عبر المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي

أ. د. عماد الدين خليل
جامعة الموصل - العراق

(١) لا يتشكل الإنجاز التاريخي في الفراغ، ولا يبرز على حين غفلة، وإنما هو وليد عوامل وخبرات تتنامى بمرور الزمن، وتزداد نضجًا لكي تحقق ذلك الإنجاز.

إن تراكم الجهد وتأثيره المؤكد في الصيرورة التاريخية لهو واحد من قوانين الحركة، التي تفسر الكثير من الظواهر والأحداث. وفي ضوء ذلك يمكن أن ندرس الإنجازات التي نفذها رجل كالناصر صلاح الدين، سواء في معركة حطين وتحرير بيت المقدس عام ٥٨٣هـ، أو في عمليات استثمار الفوز التي أعقبتها، وآلت إلى تضييق الخناق على الصليبيين في الشام وفي فلسطين.. تلك الإنجازات التي تمنح الدارسين فرصة طيبة؛ لاختبار أقطاب الفاعلية التاريخية، وتجاوز الرؤية الأحادية في التفسير.

فها هنا يبدو أن البطل وحده لا يقدم المسوغ الكافي للإنجاز، كما أن الجمهور المقاتل وحده لا يكفي، وهما معًا؛ أي البطل والجمهور لا يكفيان- كذلك-لتفسير الظاهرة، ولابد من إضافة بعد ثالث يتمثل بلا ريب في عامل تراكم الجهد، أو تنامي الإنجاز التاريخي في سياق ما من أجل الوصول إلى نتائج مقنعة.

والبحث الموجز الذي تنطوي عليه هذه الصفحات يمثل محاولة لمتابعة هذا العامل الأخير، ومعرفة الحلقات الأساسية للجهد والإنجاز التاريخيين، اللذين قادا إلى الوحدة، التي حققها الناصر صلاح الدين، والتي انعكست في نهاية الأمر في واحدة من أوسع الأعمال التحريرية في التاريخ الإسلامي وأكثرها أهمية.

لقد درست بما فيه الكفاية الإنجازات السياسية والعسكرية لقادة، كالبرسقي (٥١٥-٥٢٠هـ)، وعماد الدين زنكي (٥٢١-٥٤١هـ)[١]، ونور الدين محمود[٢]، لكن هذه الدراسات كانت. في أغلب الأحيان. تعالج تلك الإنجازات كحلقات منفصلة، والمهم متابعة طبيعة الارتباط بينها؛ لوضع اليد على تنامي الحدث الوحدوي، الذي انتهى إلى الناصر صلاح الدين، فعززه وزاد عليه، وتمكن بمعطياته من تحقيق انتصاراته المعروفة.

(٢) لقد اخترق الصليبيون عالم الإسلام: الجزيرة الفراتية، والشام، وفلسطين، ومصر فيما بعد، وتمكنوا من إقامة مملكتهم الأم في بيت المقدس، وإماراتهم الثلاث في الجزيرة والشام، وكانت حالة

الاصطراع والتمزق واحدة من أهم العوامل التي مكنت لهم في الأرض.

ولحسن الحظ أن هذا التمزق، الذي امتد-أفقيًّا- على مدى خارطة العالم الإسلامي، لم ينزل في العمق إلى المجتمع نفسه، بمعنى أن الحالة التاريخية كانت تقتضي بالدرجة الأولى تغيّرًا في القيادة؛ لكي تجد في جماهير المسلمين الأداة التاريخية الحاضرة دومًا لتلبية الحاجة، والاستجابة للنداء، وممارسة المجابهة الموصولة للخصم.

ومهما يكن من أمر فإن ظاهرة الغزو الصليبي أكدت-في الساحة الإسلامية-العديد من صيغ التوحد، ومنحت القناعة-بالتالي-في قدرة هذه الأمة، عبر لحظات الخطر، على التوحد والالتئام.

إن بمقدور أي دارس لعصر الحروب الصليبية أن يضع يديه على المؤشرات التالية، التي تؤكد التوجه الوحدوي للأمة على مستويي القيادة والقاعدة :

أولاً : زوال الكيانات المحلية.

ثانيًا : زوال انشطار الشام ومصر.

ثالثًا : وحدة الجماهير.

رابعًا : وحدة القيادة.

كما أن بمقدور أي دارس للمرحلة التاريخية نفسها أن يضع يديه على صيغ تنفيذية شتى لهذا التوجه الوحدوي، يمكن أن ندرجها في السياقات الآتية:

أولاً: التحالفات على مستوى القمة

(كالذي تم بين ولاة السلاجقة: على الموصل، كربوقا، وجكرمش، ومودود، وجيوش بك، وأمراء الجزيرة الفراتية وشمالي الشام في الفترة المبكرة للغزو الصليبي ٤٨٧-٥١٥هـ).

ثانيًا : الاستقلال في اتخاذ القرار

(كالذي تم على أيدي أمراء الأراتقة في ديار بكر: سقمان، وإيلغازي، وبلك بن بهرام، في المدة ما بين ٥١٣-٥١٨هـ، وكذلك والي الموصل السلجوقي آق سنقر البرسقي في الأعوام ٥١٨-٥٢٠هـ)(٣).

ثالثا : الضم الوحدوي

(كالذي تم على يد عماد الدين زنكي في الجزيرة وشمالي الشام في المدة ما بين ٥٢١ - ٥٤١هـ).

رابعًا: تكوين الأمة المقاتلة

(كالذي تم على يد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي في الشام ومصر في المدة ما بين ٥٤١-٥٦٩هـ).

خامسًا : الضم الاتحادي

(كالذي تم على يد الناصر صلاح الدين في مصر، وفلسطين، والشام، والجزيرة الفراتية، والأناضول فيما بين ٥٦٩-٥٨٣هـ).

ولنا الآن أن نتابع الشاهد التاريخي لبعض نماذج التوحد التي مهدت، بتسلسلها الزمني وتراكم نتائجها، الطريق إلى معركة حطين (عام ٥٨٣هـ)، وتحرير القدس، وتضييق الخناق على الغزاة، فيما يمكن أن يعد-عسكريًّا-استثمارًا للوحدة التي مكنت الناصر صلاح الدين من تحقيق انتصاراته تلك.

(٣) بعد مقتل بلك بن بهرام الأرتقي عام ٥١٧هـ(٤)، ومجيء حسام الدين تمرتاش بنزعته الانعزالية ورغبته في مهادنة الصليبيين، فقدت المقاومة الإسلامية دعمًا قويًّا كانت تمدها به وتقوده الإمارات الأرتقية في ديار بكر، التي قدر قادتها طوال السنوات السابقة على حماية حلب من ضغوط الصليبيين، فضلاً عن أنهم ألحقوا بالعدو هزائم ساحقة، كادت أن تشله عن العمل، وتسوقه إلى اتخاذ مواقف دفاعية صرفة(٥).

أما الآن، وبعد أن قتل آخر أمير أرتقي كان يقود حركة المقاومة الإسلامية، فإن الصليبيين عادوا إلى الهجوم كرة أخرى.. وأصبح شمال الشام، وقاعدته حلب، هدفَ هذا الهجوم.

وشهد عام ٥١٨هـ حملة تخريبية شاملة ضد المناطق الزراعية المحيطة بحلب، ألحقت خسائر فادحة، قدرت بمائة ألف دينار، وقاد الهجوم أميرا أنطاكية والرها، ثم ما لبث الصليبيون أن فرضوا

الحصار على حلب من شتى جهاتها(٦)، «ووطنوا أنفسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يغادرونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل الحر والبرد»(٧)، وراحوا يشنون هجماتهم عليها، ويقطعون الأشجار المحيطة بها، كما قاموا بتخريب مشاهد كثيرة، ونبشوا قبور المسلمين، وسلبوهم أكفانهم، وعمدوا إلى من لم تنقطع أوصاله منهم، فربطوا الحبال بأرجلهم، وسحبوهم أمام أنظار المسلمين، وجعلوا يقولون: «هذا نبيكم محمد»، وأخذوا مصحفًا من أحد مشاهد حلب الخارجية ونادوا: «يا مسلم أبصر كتابك»، ثم ثقبه أحد الفرنج بيده، وشده بخيطين، وربطه بأسفل برذونه، فراح هذا يروث عليه، وكلما أبصر الفرنجي الروث على المصحف صفق بيديه، وضحك عجبًا وزهوًا(٨).

لم يكتف الصليبيون بهذا، بل راحوا يمثلون بكل من يقع بأيديهم من المسلمين، فاضطر هؤلاء إلى مجاراتهم بالمثل، وأخذت جماعات من مقاتلي حلب تخرج سرًّا لتغير على معسكرات الأعداء، فتقتل وتأسر، ثم تنسحب إلى داخل المدينة. وخلال ذلك كانت الرسل تتردد بين الطرفين للتوصل إلى اتفاق، ولكن دون جدوى، حتى ضاق الأمر بالحلبيين(٩)، فاتفقوا على إرسال وفد من أعيان حلب؛ لاستدعاء حسام الدين تمرتاش الأرتقي، وخرجوا ليلاً متجهين إلى ماردين، وعندما بلغوها كان أميرها تمرتاش منهمكًا في الاستيلاء على بعض المواقع المجاورة، وكان هذا أحد أسباب عدم اكتراثه بحلب. وكانت الرسل قد ترددت-قبل ذلك-بينه وبين البرسقي في الموصل؛ لتوحيد جهودهما ضد العدو وإجلائه عن حلب، لكن انهماكه في توسيع إمارته في ديار بكر صرفه عن هذا الأمر. وبقي الحلبيون في ماردين مدة من الزمن، يحثون تمرتاش على إنجاد حلب وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون أن يقدم على أي إجراء جاد، فأعلموه أنهم لا يريدون سوى أن يصل بنفسه، وأن الحلبيين سيكفونه أمر العدو(١٠).

ازدادت الأحوال في حلب سوءًا، وقلت الأقوات فيها، وانتشر المرض، وضعف جندها عن القتال بسبب الجوع والإنهاك والمرض، واتبع بعض مسؤولي حلب سياسة جائرة تجاه السكان، فصادر أملاكهم، وسلط الجند عليهم(١١).

وظهر للحلبيين من تمرتاش الأرتقي الوهن والعجز(١٢)، فكتب أحدهم إلى الوفد في ماردين يخبرهم بما آل إليه أمر أهل حلب من الجوع والمرض وأكل الميتات، فوقع هذا الكتاب بيد تمرتاش، فتملكه الغضب، وقال: «انظروا إلى هؤلاء يتجلدون عليّ ويقولون: إذا وصلت فأهل حلب يكفونك أمرهم-أي الصليبيين-ويغدرون بي حتى أصل في قلة، وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة»(١٣). ثم أمر بمراقبة الوفد كي لا يغادر أعضاؤه مادرين للاستنجاد بأمير آخر. ولكن هؤلاء تمكنوا من تدبير وسيلة للهرب، ومن ثم اتجهوا إلى الموصل للاستنجاد بالبرسقي(١٤).

كان البرسقي حينذاك مريضًا، وكان الضعف قد بلغ به مبلغًا عظيمًا، فمنع الناس من الدخول عليه، وعندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول، أذن لهم، فدخلوا، واستغاثوا به، وشرحوا له الأخطار التي تحيق بحلب، ومدى الصعوبات التي يعانيها أهالي المدينة، فأجابهم البرسقي: «إنكم ترون ما أنا فيه الآن من المرض، ولكني قد جعلت لله عليّ نذرًا لئن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم، والذب عن بلدكم، وقتال أعدائكم».

ولم تمض ثلاثة أيام على مقابلته الوفد الحلبي حتى فارقته الحمى، وتماثل للشفاء. وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل، ونادى قواته أن تتأهب لجهاد الصليبيين، واستنقاذ حلب. وفي غضون أيام معدودات غدا جيشه على أهبة الاستعداد، فغادر الموصل متجهًا إلى الرحبة، وأرسل من هنالك إلى طغتكين أمير دمشق، وخيرخان بن قراجا أمير حمص يطلب منهما مساعدته في إنجاز مهمته، فلبى

هذان الأميران دعوته، وبعثا بعساكرهما للانضمام إلى جيش البرسقي، الذي كان قد تحرك آنذاك صوب بالس القريبة من حلب(١٥).

من بالس أرسل البرسقي إلى مسؤولي حلب، وشرط عليهم تسليم قلعة حلب لنوابه؛ كي يحتمي بها في حالة تراجعه أمام الصليبيين، فأجابوه إلى طلبه، وسلموا القلعة إلى نوابه، وما أن استتب الأمر لهؤلاء، واطمأن البرسقي إلى وجود حماية أمينة له في حالة تراجعه، حتى بدأ زحفه تجاه قوات الصليبيين التي تطوق حلب(١٦).

وصلت طلائع قوات البرسقي حلب يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٥١٨هـ، وما إن اقترب البرسقي من المدينة بقواته المنظمة، حتى أسرع الصليبيون في التحول إلى منطقة أفضل من الناحية الدفاعية، فعسكروا في جبل جوشن على الطريق إلى أنطاكية، وهكذا غدوا مدافعين بعد أن كانوا مهاجمين، وخرج الحلبيون إلى خيامهم فنهبوها، ونالوا منها ما أرادوا، بينما اتجه قسم آخر منهم لاستقبال البرسقي لدى وصوله، وقد أدرك هذا ما يرمي إليه الصليبيون بانسحابهم واتخاذهم موقفًا دفاعيًّا، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل أن يعيد تنظيم قواته من جديد خوفًا من نزول هزيمة فادحة بعساكره قد تعرض حلب للسقوط، وأرسل طلائعه الكشفية- بعد أن ابتعد الصليبيون-لرد الجيوش المتقدمة إلى معسكراتها في حلب، وقال موضحًا خطته هذه: «ما يؤمننا أن يرجعوا علينا، ويهلك المسلمون؟ ولكن كفى الله شرهم، فلندخل إلى البلد ونقويه، وننظر إلى مصالحه، ونجمع لهم، إن شاء الله، ثم نخرج بعد ذلك إليهم».

ومن ثم دخل البرسقي حلب، وبدأ بحل مشكلاتها ورفع مستواها العسكري والاقتصادي والاجتماعي، فنشر العدل، وأصدر مرسومًا برفع المظالم المالية والمكوس وإلغاء المصادرات، وعمت عدالته الحلبيين جميعًا بعد ما منوا به من الظلم والمصادرات من تسلط الجند عليهم طيلة فترة الحصار الصليبي لحلب(١٧).

لم يكتف البرسقي برفع الظلم عن السكان، بل قام بنشاط واسع لجلب المؤن والغلال إلى المدينة(١٨): كي يخفف من حدة الغلاء، ويقضي على الضائقة الاقتصادية التي يعاني منها الحلبيون(١٩). وما لبث النشاط الزراعي في منطقة حلب أن عاد إلى حالته الطبيعية، حيث قام الفلاحون بزراعة منتجاتهم في أراضيهم، التي شردوا عنها، وساعدتهم الظروف المناخية حيث هطلت مقادير كبيرة من الأمطار، فأخصبت الأرض، وجاءت غلالهم في ذلك الموسم من أجود الغلال وأزكاها، الحنطة والشعير خاصة(٢٠). كما عاد النشاط التجاري إلى سابق عهده(٢١)، اعتمادًا على ما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار منذ مجيء البرسقي وجلاء الصليبيين(٢٢).

وهكذا استطاع البرسقي أن يحطم الطوق الذي أحاط به الصليبيون حلب، وأن يخلص هذا الموقع المهم من أخطر محنة جابهته طوال الحروب الصليبية، وأن يعيد إليه الأمن والعدل والاستقرار، وينظم أوضاعه الاقتصادية والإدارية والاجتماعية، ويوحده مع الموصل لأول مرة منذ بدء الحروب الصليبية، الأمر الذي أتاح لهذا القائد، ولعماد الدين زنكي من بعده، أن يفيد من هذه الوحدة؛ لتحقيق انتصارات عديدة ضد الصليبيين.

ذلك أن حلب هي القاعدة الثانية في الشمال بعد الموصل، وهي الحصن الأخير الذي وقف بوجه الزحف الصليبي في المنطقة باتجاه الشرق؛ إذ كانت تتمتع بمركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات. وعلى الرغم من وقوعها بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية، إلا أنه كان بإمكانها الاتصال بالقوى الإسلامية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمال الشام، مما يعد أساسًا حيويًّا لاستمرار حركة الجهاد، وتحقيق أهداف حاسمة ضد العدو، هذا فضلاً عن عمق الصلات

الاقتصادية والجغرافية بين حلب والموصل منذ أيام الحمدانيين وتوثقها، ومن ثم تعد المدينتان مكملتين إحداهما للأخرى.

ولقد بدا واضحًا أن اتحاد حلب مع الموصل، وخضوعهما لسيطرة البرسقي أضحى يهدد كيان الصليبيين؛ إذ رأى البرسقي، وزنكي من بعده، في هذه الوحدة وسيلة يستطيع بها كل منهما أن يقيم إمارة مستقلة تتوارثها سلالته، ولما لم تكن الموصل وحدها كافية لتحقيق هذا الغرض، نظرًا لقربها من حواضر السلطنة السلجوقية، فإن الاستيلاء على حلب وبلادها يزيد في توطيد مركزه، وتثبيت دعائم ملكه، بما تبذله من المساعدة البشرية والاقتصادية. وما يزيد في قيمة الاستيلاء على حلب أنها بفضل موقعها على ثغر المسلمين ومعقلهم تجاه العدوأ ضفت على أمير الموصل صفة المدافع عن الإيمان ضد الكفار. كما أن قوة الشعور الإسلامي يجعل من العسير على السلطان السلجوقي أن يتخذ ضد أميرها إجراءً صارمًا. يضاف إلى ذلك أن البرسقي، بصفته ممثلاً للسلطان، صارت له السلطة الشرعية الوحيدة بين الإمارات الكثيرة وقتئذ، فصار في وسعه أن يقضي على الفوضى الفاشية بها، وأن يخضعها لصالح السلاجقة أو باسمهم على الأقل، وسرعان ما غدت الإمارة، التي شكلها البرسقي، والممتدة من نهر قويق إلى نهر دجلة، نواة لما قام بعدئذ بالشام من دولة إسلامية ممتدة زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك.

ولم يكن الصليبيون، الذين وحد بينهم نظام الملكية في بيت المقدس، يواجهون قبل ذلك سوى بلاد تنازعتها في الشام قوى عديدة، وإقطاعات متفرقة، زادت من ضعفها. فما حدث من إضافة حلب إلى الموصل-إذًا-يعد بدء توحيد الجبهة الإسلامية التي لابد أن تقضي في يوم من الأيام على قوة الصليبيين في الشام(٢٣).

مهما يكن من أمر فإن البرسقي، بعد سلسلة من الهجمات ضد المواقع الصليبية شمال الشام، عاد إلى الموصل على أمل استئناف مشروعه في وقت قريب، وانطلاقًا من قاعدته الجديدة (حلب)، لكن اغتياله بعد وقت قصير من رجوعه على أيدي الباطنية (٥٢٠هـ) قضى على مطامحه. ولم يلبث ابنه عزالدين مسعود أن توفي بعد أشهر من توليه الإمارة تاركًا الحكم لأخيه الصغير جاولي، الأمر الذي مهد الطريق أمام أعيان الموصل للمطالبة بوالٍ ذي قدرة على مجابهة الموقف، فكان أن وقع الاختيار على عماد الدين زنكي.

(٤) كان أهم ما سعى إليه عماد الدين زنكي إثر توليه الموصل عام ٥٢١هـ «عبور الفرات وملك حلب، ثم الاستيلاء على غيرها من البلاد الشامية» كما أعلن ذلك بنفسه(٢٤). وكان يعينه على هدفه هذا المنشور الذي منحه إياه السلطان محمود السلجوقي بحكم الموصل والجزيرة والشام(٢٥)، فضلاً عن كون حلب-بالذات-جزءًا من ممتلكات البرسقي، والي الموصل السابق، التي آلت بحكم الميراث السياسي إلى الحاكم الجديد(٢٦). وقد أدرك زنكي أنه ما لم يضمن سيطرته على حلب، أو بعبارة أدق، ما لم يتشبث بنواة الوحدة التي أنشأها سلفه البرسقي، فلن يكون بمقدوره المضي قدمًا في توسيع قاعدة الوحدة والبدء-استنادًا إليها-بأعمال التحرير في مواجهة العدو الصليبي.

وهكذا لم يشأ زنكي الاشتباك مع الصليبيين منذ البداية، ورأى أن يسعى أولاً إلى تثبيت إمارته الجديدة، وتعزيز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية، وتوحيد ما يمكن توحيده من الإمارات الصغيرة المتناثرة التي تحيط بها وتخترقها من كل مكان، وتشكل عوائق أمام أي خطة يستهدف من ورائها إعلان الجهاد العام ضد الصليبيين؛ إذ كانت المصالح الخاصة لأمرائها، والمنافسات المستمرة فيما بينهم، تمنع تشكيل حلف متماسك ضد الأعداء، كما كان

هؤلاء الأمراء–من جهة أخرى–يشكلون خطرًا مباشرًا على زنكي في حال تقدمه لقتال أولئك الغزاة؛ إذ ستظل خطوط رجعته–آنذاك–غير مأمونة، فضلاً عن إمكان تعرضه لمجابهة محالفات بين بعض هؤلاء الأمراء والصليبيين، قد تعيقه عن تنفيذ مشاريعه واسترداد ما استولوا عليه. ومن ثم قام بمراسلة جوسلين أمير الرها، وعقد معه هدنة مؤقتة(٢٧)، «يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشامية والجزرية، وإصلاح شأنها، والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم، ويعرف نصحهم وشجاعتهم»(٢٨).

ولم تشر المصادر إلى شروط هذه الهدنة التي كان أمدها سنتين(٢٩)، إلا أن ابن الأثير يذكر أنها تمت على ما اختاره زنكي(٣٠). ويبدو أن المشكلات التي جابهت جوسلين اضطرته إلى قبول هدنة لصالح غريمه المسلم.

في العام التالي (٥٢٢هـ) دخل زنكي حلب؛ لاتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام، وسط ترحيب بالغ من أهاليها الذين خرجوا لاستقباله في تظاهرة، عبروا خلالها عن فرحهم بالأمير الذي جاء لتخليصهم من تهديد الصليبيين الدائم لهم، ومما كانوا يقومون به من تخريب لا حد له في المناطق الزراعية المحيطة بحلب(٣١).

وانطلق زنكي بعد ذلك لاكتساح ما كان يقف في طريقه من حصون مستقلة وإمارات محلية وضمها، منتهزًا فرصة هدنته مع جوسلين، ساعيًا إلى توسيع حدود إمارته في الاتجاهات كلها.

لكن اهتمامات زنكي الوحدوية هذه، على أهميتها البالغة في تنفيذ استراتيجياته ضد العدو، لم تشغله عن بذل نشاط مواز، لا يقل كثافة وتواصلاً في ميدان التحرير.. ولقد ظل الجهدان، أو الخطان المتوازيان؛ التوحيد والتحرير، يعملان معًا حتى اغتيال زنكي عند أسوار قلعة جعبر على نهر الفرات بعد عشرين عامًا من بدء إمارته في الموصل.

وليست مهمة هذه الصفحات استعراض الجهد الذي نفذه زنكي في الساحتين والنتائج العسكرية والسياسية والاستراتيجية التي تمخضت عنه هنا وهناك، فلقد سبق أن عالجنا هذه المسألة بالتفصيل في كتاب (عماد الدين زنكي)(٣٢)، وإنما سنكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الإنجازات الأساسية التي نفذها زنكي عبر سني الصراع ضد الغزاة، مستثمرًا–إلى حد كبير–الطاقات الوحدوية، التي عبأها خلال سنوات حكمه بضم جل الكيانات السياسية المبعثرة على خرائط الجزيرة الفراتية وتوحيدها، والمناطق الجبلية في شمالي العراق، ووسطه، وشمالي بلاد الشام وصولاً إلى ساحل البحر المتوسط، ودمشق، وحافات فلسطين الشمالية مشكلاً واحدة من أكثر الإمارات الإسلامية–يومها–ثقلاً واتساعًا وقدرات عسكرية وبشرية، الأمر الذي مكنها من تحقيق سلسلة من الانتصارات المهمة ضد العدو الصليبي، وتوسيع نواة الوحدة التي بناها البرسقي، وتسليم الثمرة التي ازدادت نضجًا إلى نور الدين محمود، الذي مضى خطوات واسعة أخرى باتجاه التوحيد والتحرير.

في عام ٥٢٤هـ كان زنكي قد أنهى حل معظم مشكلاته وحروبه ضد أمراء ديار بكر(٣٣)، كما كانت هدنته مع جوسلين قد انتهت، فقرر البدء بالهجوم على المواقع الصليبية، مستهدفًا أشدها قربًا وخطرًا على كيانه السياسي في حلب، ولم يكن غير حصن الأثارب المجاور هو ذلك الهدف، بسبب ما كان يلحقه من أضرار بفلاحي المنطقة المسلمين، وكان من فيه من الصليبيين يقاسمون سكان حلب أعمالها الغربية كافة، ويقومون بغارات مستمرة عليهم، وقد جمعوا فيه خيرة فرسانهم نظرًا لخطورة موقعه وأهميته بالنسبة لأهدافهم في المنطقة(٣٤).

وبعد معركة ضارية، قتل فيها عدد كبير من الصليبيين، وأسر عدد آخر، تمكن زنكي من تحرير الحصن وقتل معظم أفراد حاميته، ثم يأمر بتخريبه

بعد ذلك: كي لا يكون عرضة لتهديد مستمر من قبل العدو(٣٥). وقد أشار ابن الأثير إلى واحدة من أهم نتائج معركة الأثارب، وهي أن الأحداث في الشام أخذت تتجه اتجاهًا مغايرًا لصالح المسلمين، الأمر الذي جعل الصليبيين يدركون أن عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن في حسبانهم، ويحولون خططهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع، بعد أن كانوا «قد قطعوا في ملك الجميع»(٣٦).

انشغل زنكي طيلة السنوات الأربع التالية (٥٢٥-٥٢٨هـ) بمهماته التوحيدية. وفي عام ٥٢٩ هـ أتيحت له الفرصة ثانية؛ لتحقيق انتصارات جديدة في بلاد الشام، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب، التي كانت تهددها باستمرار، فضلاً عن كونها الخط الدفاعي الذي يحمي إمارة أنطاكية من هجمات المسلمين، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها(٣٧)، الأمر الذي زاد من تنبيه الصليبيين إلى مدى خطورته، فراحوا يترصدون تحركاته.

وبعد عامين، وحينما كان منهمكًا في حصاره لحمص، قاموا بحشد جيش كبير تقدموا به مسرعين لمباغتة زنكي والقضاء عليه، وكسب أمراء دمشق، الذين كانت حمص من بين ممتلكاتهم، ولكن زنكي استطاع أن يستدرجهم من خلال إظهاره الرغبة في الهجوم على حصن بعرين، فتقدموا إليه بقيادة فولك ملك بيت المقدس، ودارت بين الطرفين معركة شديدة، انتهت بانتصار المسلمين، وبتدمير قسم كبير من قوات العدو(٣٨). وعلى الرغم من استنجاد صليبيي الشام بالبيزنطيين، وتقدم قوات هؤلاء بقيادة الإمبراطور حنا كومنين، إلا أن زنكي استطاع التقدم إلى حصن بعرين، وعزله، وإرغامه على الاستسلام(٣٩).

وتعويضًا عن هذه الهزيمة سعى الإمبراطور البيزنطي وحلفاؤه الفرنجة إلى الاستيلاء على عدد من المواقع الإسلامية في الجهات الشمالية من الشام، وتم عقد اتفاق بين الطرفين، كان من أبرز بنوده أنه إذا ما استولى المتحالفون على حلب وما يحيط بها من حصون فإن ريموند أمير انطاكية يقوم بالتنازل عن قاعدة إمارته للإمبراطور البيزنطي، ويتخذ لنفسه عوضًا عن ذلك إمارة صليبية جديدة، تضم حلب وشيزر وحماة وحمص. وقد قام ريموند-تأكيدًا لهذا الاتفاق-بإعلان تبعيته للإمبراطور(٤٠)، إلا أن زنكي من خلال سلسلة من الأنشطة والمناورات والخدع العسكرية والسياسية التي أدارها بمقدرة فائقة، وعززها بالحرب النفسية والهجمات الإعلامية، تمكن من إحباط المحاولة، بل إن الأمر انتهى بتدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، وعدم استطاعتهم القيام بأي عمل سريع ضد نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية.

انهمك زنكي في الفترة التالية بالعمل على إتمام خطته بتوحيد الجبهة الإسلامية كي يكون أكثر قدرة على مجابهة الصليبيين وتحقيق هدفه المركزي بتحرير (الرها) من قبضتهم. وقد تمكن عام ٥٣٨هـ من استغلال مركزه القوي في ديار بكر، والقيام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية العائدة لإمارة الرها(٤١) من أجل تمهيد الطريق؛ لإنزال ضربته المباشرة بالرها نفسها، وتحقيق حلمه الذي طالما راود خياله عبر سني صراعه الطويل ضد الصليبيين.

كانت الرها من أهم المراكز الصليبية بصفتها قاعدة لإحدى إماراتهم الأربع في الشرق الإسلامي، ولقربها من العراق، وقوة تحصيناتها، وما كانت تسببه للمناطق الإسلامية المجاورة من أخطار لا تقف عند حد، «وهي من أعظم المدن عند النصارى؛ إذ كانت عين البلاد الجزرية، وحصن المنطقة، وانضاف إليها عدد من البلاد»، فاتسعت أراضيها، واشتدت وطأتها على سكان المناطق المجاورة، «وأصبحت غارات فرسانها تبلغ آمد وماردين ونصيبين..»(٤٢).

وكانت هذه الإمارة الصليبية فضلاً عما سبق، تشكل عائقًا يحول دون قيام زنكي باستكمال توحيد

الجبهة الإسلامية في الجزيرة وشمالي الشام، بسبب تدخلها المستمر لصالح أعدائه من أمراء المسلمين في المنطقة، وتهديدها الدائم لخطوط المواصلات الإسلامية، التي تربط بين الموصل وحلب من جهة، وبين بلاد فارس وسلاجقة آسيا الصغرى من جهة أخرى(٤٣).

سنتجاوز الدخول في تفاصيل الظروف التي أعانت زنكي على تنفيذ حلمه القديم، كما سنتجاوز الحديث عن تفاصيل المعركة التي انتهت بتحرير الرها والخطط الناجحة التي رسمها زنكي لتحقيق هدفه؛ إذ يمكن الرجوع إليها في كتاب (عماد الدين زنكي)(٤٤)، ولكننا سنقف قليلاً عند النتائج التي تمخضت عن هذا الحدث على مستوى العالم الإسلامي والمسيحي، وكذلك بالنسبة لزنكي وإمارته بالنظر لارتباطهما بالموضوع الذي بين أيدينا.

فأما فيما يتعلق بالمسلمين، بصورة عامة، فقد أعطاهم سقوط أولى الإمارات الصليبية أملاً جديدًا(٤٥)، وعدّ نصرًا عظيمًا للإسلام «لم ينتفع المسلمون بمثله، وطار في الآفاق ذكره، وصار حديث المحافل»(٤٦)؛ إذ إنه أوضح مدى قدرة المسلمين على مجابهة القوى الصليبية وانتزاع أقوى حصونهم منهم، كما أن هذا الانتصار مهد الطريق أمام الذين أعقبوا زنكي لإكمال عمله وإسقاط بقية الإمارات الصليبية واحدة تلو الأخرى، كما أدى إلى القضاء على الحواجز التي أقامها الصليبيون في هذه المنطقة، والتي أعاقت الاتصال بين سلاجقة آسيا الصغرى وأقرانهم في العراق وبلاد فارس(٤٧).

وأما فيما يتعلق بالعالم المسيحي، فقد أثار سقوط الرها مخاوف المؤسسات الصليبية في أوربا، ونبههم إلى خطورة الأوضاع في الجزيرة والشام، وتحولها إلى اتجاه مضاد لمصالحهم وأهدافهم، لذلك نشطوا في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وصلت إلى الشام بعد مقتل زنكي وتولي ابنه نور الدين زعامة المسلمين في الشام، وعرفت بالحملة الصليبية الثانية.

كما أن سقوط هذا الموقع المهم دفع ريموند، أمير أنطاكية، إلى الاعتقاد بعدم قدرته على مجابهة زنكي بمفرده، والذهاب-بالتالي-إلى القسطنطينية لإعلان تبعيته للإمبراطور البيزنطي (مانويل)، الذي وعده بمساعدته ضد غريمه(٤٨).

فإذا ما انتقلنا إلى إمارة زنكي وجدنا كيف كان لسقوط الرها دور كبير في تخليصها من مصدر خطر قريب كان يهدد المنطقة دومًا بشن الغارات «فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين»(٤٩)، كما أن هذا النصر مهد الطريق أمام زنكي للاستيلاء على الحصون الصليبية المجاورة، وفرض سيطرته التامة على ممتلكات أعدائه في المنطقة.

وفوق هذا وذاك حقق فتح الرها نتائج مهمة بالنسبة لزنكي نفسه؛ إذ عزز مركزه تجاه السلطان السلجوقي والخليفة العباسي، الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب الشرفية؛ كملك الأمراء، وزعيم جيوش المسلمين، وركن الإسلام، وأمير العراقين والشام(٥٠)، كما أن هذا النصر جعل من زنكي إمامًا للمسلمين، والمدافع عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الدين(٥١)، ودارت عن شخصه في المجامع أحاديث شتى، تصور مدى التقدير والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر(٥٢).

استغل زنكي فرصة سقوط الرها، واضطراب أمور الصليبيين في المنطقة، وأخذ يسعى إلى الاستيلاء على مراكزهم وحصونهم، التي أخذت تسقط في يديه الواحدة تلو الأخرى(٥٣)، «وجعل لا يمر بعمل من أعمالها، ولا معقل من معاقلها إلا سلم إليه في الحال»(٥٤)، ولم يبق من أملاك إمارة الرها الواسعة سوى عدد من الحصون المنتشرة غرب الفرات(٥٥)، استطاع نور الدين محمود-فيما بعد- اكتساحها جميعًا، ومحو أولى الإمارات الصليبية من الوجود.

وكان زنكي بصدد استكمال مهماته التحريرية في الجزيرة الفراتية، والتحول بعدها إلى الشام، لولا

انفجار عدد من المشكلات والمؤامرات في الموصل والرها، اضطرته لإيقاف نشاطه ريثما يقضي عليها، لكن اغتياله بعد وقت قصير عند أسوار قلعة جعبر على نهر الفرات عام ٥٤١هـ أوقف مشاريعه ومطامحه التحريرية والتوحيدية معًا، تلك التي سيقدر لابنه نور الدين محمود أن يتولى مسؤوليتها، ويقطع خطوات أخرى على الطريق.

يمكن القول في ضوء المعطيات السابقة: إن زنكي استطاع أن يحقق قسطًا كبيرًا من برنامجه، وأن يكوّن لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي، كسياسي بارع، وعسكري قدير، وقائد واع، أدرك الخطر الذي حاق بالعالم الإسلامي من قبل الغزاة؛ فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام، وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة، استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق مشروعه المزدوج؛ أي تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين.

لقد اعتمد زنكي منذ البدء سياسة الضم الوحدوي؛ لأنه أدرك أنه إذا ما سلك سبيل المسالمة والتوحد تجاه الأمراء المحليين، فإن حصونهم ومدنهم وإماراتهم ستظل تشكل عوامل خطر ضد إمارته؛ لقربها منها ولاستراتيجية مواقعها؛ إذ تشكل نقاط تسلط مرتفعة، انحدارها باتجاه الموصل، وخطوطها الخلفية سلاسل جبلية، وأنهار متشابكة، وحصون منيعة.

كما أن السياسة الانعزالية، التي اتبعها أولئك الأمراء تجاه الخطر الصليبي المتقدم نحو الشرق، وما تبع ذلك من تشتيت لإمكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية، قد أدت إلى عجز هذه الإمارات عن الوقوف بوجه هذا الخطر في الوقت الذي كان على زنكي أن يعمل على إزالة العقبات، التي تقف أمام توحيد الكيانات المتفرقة المبعثرة، في جبهة إسلامية موحدة، تملك القدرة على وقف الزحف الصليبي، ومن ثم تبدأ الهجوم المنظم على قواعد العدو. هذه هي العوامل التي دفعت زنكي إلى اتباع سياسة الهجوم والضم الوحدوي، على الرغم مما تخللها -أحيانًا- من علاقات سلمية ومعاهدات استدعتها طبيعة الظرف الذي كان يمر فيه.

وهكذا تبدو لنا واضحة أهمية الدور الذي مارسه زنكي في تاريخ الحقبة؛ إذ يعد أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج مرسوم؛ ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية، التي سبقت زنكي، والتي تمت على يد كل من (مودود بن التونتكين) (٥٠٢-٥٠٧هـ)، و(إيلغازي)، و(بلك) الارتقيين (٥١٢-٥١٧هـ)، و(آق سنقر البرسقي) (٥١٨-٥٢٠هـ).

ومن المرجح أنه لو تمكن زنكي من فتح (دمشق) بعد محاولاته العديدة معها، وإنجاز طموحه بتوحيد الشام، ولو لم يقتل، وهو في قمة انتصاراته ضد الصليبيين، لكان قد استطاع أن يستكمل الأجزاء المتبقية من برنامجه، ولتكاملت أمام الباحث الحديث الصورة الواضحة للدور الذي اضطلع به في التاريخ الإسلامي، وهو دور فاصل تتضح خطورته، إذا ما عرفنا أن نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين، لم تكن جهودهما سوى إتمام للعمل الذي بدأه زنكي، وفي الطريق نفسه(٥٦).

(٥) وإذا كان عماد الدين زنكي قد بنى منجزاته توحيدًا وتحريرًا على النواة الأولى التي شكلها البرسقي، فإن نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ) ورث جانبًا كبيرًا من تراث أبيه السياسي والعسكري في بلاد الشام، حيث يقترب خط المواجهة مع الصليبيين، وحيث استكمال مطالب الوحدة يغري به ويعين عليه قرب دمشق من قاعدته في حلب، وقرب مصر من مملكته في بلاد الشام. حتى إذا ما أتيح له، بعد سنوات طويلة من الجهاد المتواصل، تحقيق

هدفيه الوحدويين الحاسمين هذين، فإنه نفذ بذلك الحلم الذي وضعه أبوه نصب عينيه، ومضى بالمنجزات التي أرساها ونماها البرسقي وزنكي إلى غايتها، فهو لم يوحد الشام فحسب، وإنما أضاف إليها مصر، بما تملكه من موقع استراتيجي مؤثر، فوضع العدو بين فكي الكماشة، وأطبق عليه من الشمال والجنوب، ثم ما لبث، بعد أن أسقط الخلافة الفاطمية العاجزة بوزرائها المتكالبين على السلطة بأي ثمن، أن تفرد باتخاذ القرار، وأصبح صاحب القول الفصل في توظيف الطاقات الإسلامية في مصر والشام والعديد من الأقاليم الأخرى؛ لمجابهة الصليبيين وتضييق الخناق عليهم، وتمهيد الطريق لقطف الثمرة في قلب الساحة الفلسطينية، تلك التي أتيح لخليفته الناصر صلاح الدين أن ينفذها، ولكن ليس قبل أن يقضي هو الآخر زهرة عمره في مواصلة طريق جمع الطاقات الإسلامية بصيغة (اتحادية) جديدة، تناسب المرحلة الزمنية التي كان يجتازها، وقرب لحظة اللقاء الحاسم مع الغزاة.

مهما يمكن من أمر فإن نور الدين محمود ظل عبر سنوات حكمه الثلاثين يتحرك على خط متواز من التحرير والتوحيد، أسوة بما فعله البرسقي وزنكي من قبله، وما سيفعله الناصر صلاح الدين من بعده؛ وتبقى نسب الاهتمام بهذا الجانب أو ذاك، ومدده الزمنية، والمدى الذي يطمح إليه، والتحول من أحدهما إلى الآخر رهنًا بالضرورات التكتيكية والاستراتيجية للصراع بين المسلمين والصليبيين.

ومع دخول دمشق عام ٥٤٩هـ، ومصر عبر الأعوام ٥٥٩-٥٦٤هـ وإضافة اليمن وأجزاء مهمة من الجزيرة الفراتية والأناضول، كان نور الدين يلحق الهزائم القاسية بالصليبيين، ويرغمهم على التراجع عن مواقع ذات أهمية بالغة في مجرى الصراع بين الطرفين.

لكن نور الدين لم يقف عند هذا الحد، بل إنه أضاف بعدًا جديدًا إلى التوحيد والتحرير، لم يكن سلفاه: البرسقي وزنكي، قد منحاه الاهتمام الكافي، ليس هذا فحسب، بل إن نور الدين أعطاه الأولية طيلة مدة حكمه بوصفه القاعدة الضرورية لكل إنجاز جاد في مجالي التوحيد والتحرير يراد له الديمومة والفاعلية والامتداد، ذلك هو بناء الجبهة الداخلية بناء إيمانيًّا أصيلاً، والاهتمام بالتعبئة العقدية والنفسية، ومنحها الأولية وتصعيدها إلى وتائرها العليا.

والمتتبع لسياسات نور الدين الإدارية والمالية والاجتماعية والتربوية والثقافية يلحظ هذا الخيط الذي يربطها جميعًا، فيصوغها بمفردات الإيمان والمقاصد الشرعية، ويوظفها لتحقيق الهدف المركزي، وهو تكوين الأمة المجاهدة القادرة على مواصلة العطاء والفاعلية في صراعها ضد الخصم، وهي مسألة لم يلتفت إليها سلفاه: البرسقي وزنكي بالقدر الكافي.

ومن أجل تحقيق هدفه هذا أولى نور الدين اهتمامًا ملحوظًا للسياسات الإدارية والاجتماعية والتربوية والثقافية، فيما أفاضت في الحديث عنه معظم المصادر التي قدمت مادة سخية في هذه المجالات، ويزيدها أهمية أن عددًا من مصنفيها كان معاصرًا لنور الدين أو قريب عهد منه.

* * *

ففي مجال الإدارة نلحظ كيف أن نور الدين اعتمد في تسيير شؤون دولته المتنامية على عدد كبير من الرجال، كان يعرف كيف ينتقيهم بعيدًا عن انتماءاتهم الاجتماعية، وناظرًا إلى قدراتهم ونزاهتهم وثقافتهم وقبولهم لدى جماهير المسلمين. وكان يعرف كيف يخضعهم لمراجعته الدقيقة الصارمة، ويوقفهم في الوقت المناسب منزلاً بهم العقاب العادل(٥٧).

وكان كما يصفه العماد الأصفهاني: «ذكيًّا ألمعيًّا، فطنًا لوذعيًّا، لا تشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال»(٥٨). ولم يتقدم لديه إلا ذوو الفضل والقدرة على الإنجاز الأمين المسؤول(٥٩)، بغض النظر عن الأمور الشكلية التي يرفضها نور الدين أشد

الرفض، حتى إن عددًا من كبار موظفيه كان من الخدم والعبيد، وعددًا آخر كان من غير الشاميين، ممن جاؤوا من أقاصي الشرق والغرب، فولوا أعلى المناصب؛ لأنهم جاؤوا إلى نور الدين وهم يملكون كفاءات الإدارة الناجحة التي أشرنا إليها قبل قليل.

ويبدو أن نور الدين اعتمد النظم الإدارية نفسها، المعمول بها في عصره، التي كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها العريضة، وجاء الأيوبيون والمماليك من بعدهم؛ لكي يسيروا بها نحو مزيد من التخصص والشمول. لكن نور الدين أكد على مؤشر أساسي في ميدان الإدارة؛ ذلك أن كفاءة أجهزتها لا تعتمد على بنيان الجهاز نفسه قدر اعتمادها على الرجال أنفسهم، الذين يعهد إليهم بتسييرها(٦٠).

وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتمامًا كبيرًا، وجعلها–بما أنها الإدارة التنفيذية لإقرار مبادئ الحق والعدل–في قمة أجهزته الإدارية، وخول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة، ومنحهم استقلالاً تامًّا(٦١) في دراسة القضايا المعروضة عليهم، وإصدار أحكامهم بصددها. وتوج ذلك كله بإنشاء (دار العدل) التي كانت بمنزلة (محكمة عليا) لمحاسبة كبار الموظفين، وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء، أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر.

وكان شعاره ما أكده أصحابه مرارًا «حرام على كل من صحبني ولا يرفع إلي قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلي»(٦٢). وطالما خاطب نوابه قائلاً: «والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين، فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله)، فبالله عليكم–وإلا فخبزي عليكم حرام–لا ترون قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمون مظلمة إلا وأعلموني بها وارفعوها إلي»(٦٣).

يصفه ابن الأثير بأنه «كان يتحرى العدل، وينصف المظلوم من الظالم كائنًا من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب أو أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها»(٦٤).

وكان سبب إنشائه (دار العدل) في دمشق تزايد عدد كبار الأمراء هناك، وتماديهم في اقتناء الأملاك، وتجاوز بعضهم حقوق بعضهم الآخر(٦٥). وكان نور الدين يجلس فيها مرتين في الأسبوع، وقيل أربع مرات أو خمس(٦٦) للنظر في أمور الرعية، وكشف ظلاماتهم(٦٧). وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب؛ لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية(٦٨). ولم يميز في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير «ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده»(٦٩).

ولم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظن والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبه العقوبة العادلة من غير تعد «فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر»(٧٠).

ولم يدع نور الدين منكرًا يسود جانبًا من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته، وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره. إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في الخارج، بينما في الداخل يعشش الخراب والتفكك، فيدمر الإنسان، ويفتت العلاقات الاجتماعية، ويستنزف القدرات الجهادية، وكان يتذكر دائمًا مقولة برهان الدين البلخي أحد كبار الشيوخ: «أتريدون أن تُنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور؟ فلا والله»(٧١).

* * *

وقد أولى نور الدين محمود المسألة الاجتماعية اهتمامًا بالغًا، وأدرك أن أي تغيير أساسي في واقع الحياة نحو الأحسن لن يستكمل أسبابه إلا من خلال إعادة تشكيل العلاقات الاجتماعية بالحق والعدل حيث لا يبقى هناك ظالم أو مظلوم.

ويبدو واضحًا من خلال تتبع النصوص المتعلقة بالمسألة كيف أن نور الدين كان يرى في الدولة مؤسسة لحماية حقوق جماهير المواطنين، وتقديم أوسع الخدمات لهم على خلاف ما كان يجري في مساحات واسعة من العالم يومذاك. وكان يحوط سياسته هذه برقابة صارمة على أموال الدولة العامة، ويقطع اليد التي تسعى إلى أن تمتد إليها بسوء، يوازيها انفتاح ملحوظ على الفقراء والفئات المعدومة من أبناء الأمة، من أجل تفهم واقعها المرير ورفعها إلى مستوى الكفاية.

أخذ نور الدين في تنفيذ سياساته الاجتماعية هذه منذ فترة مبكرة، وكان يصدر بين الحين والحين الأوامر، ويعمم الكتب والمنشورات بإسقاط حشود الضرائب (غير الشرعية)، التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها الحكام والأمراء الذين سبقوا نور الدين، وكانت شعبيته تزداد باطراد عجيب في خط متواز مع مقادير الضرائب التي كان يطلقها، وكان ينتهز أي فرصة لإصدار مرسوم جديد.

فعندما دخل دمشق عام ٥٤٩هـ أصدر منشورًا بإسقاط المكوس والضمانات والضرائب والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والأسواق(٧٢)، وفي عام ٥٥٢هـ عندما دخل شيزر أصدر منشوره الشهير بإلغاء حشد كبير من المظالم والمكوس، شمل معظم أنحاء دولته، وجاوز المائة والخمسين ألف دينار(٧٣). وبعد عام واحد أصدر منشورًا آخر في دمشق قرئ على الناس كافة بإسقاط ضمان بعض المواد الغذائية الأساسية، فتلقى أهالي دمشق إجراءه هذا بالترحاب وواصلوا الدعاء له(٧٤). وشهد عام ٥٦٤هـ حملة أخرى لإسقاط حشد من الغرامات والمكوس والضرائب التي لم تشملها الإجراءات السابقة(٧٥). وعندما دخل الموصل عام ٥٦٦هـ لم يشأ إلا أن يسقط عن أهليها ما كانوا يرزحون تحته من الغرامات والضرائب والمكوس، وشمل ذلك أيضًا عددًا من المدن الجزرية(٧٦). وشهد عام ٥٦٧هـ حملة شاملة أخرى لإسقاط المظالم والمكوس(٧٧). وفعل نائبه في مصر الناصر صلاح الدين ما فعله هو في بلاد الشام والموصل والجزيرة الفراتية(٧٨). ويلخص العماد الأصفهاني الوضع الضريبي في السنة التي توفي فيها نور الدين محمود (٥٦٩هـ) بأنه لم يبق حينذاك من الضرائب «سوى الجزية والخراج.. وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهاج»(٧٩)، ولعل المراد بالعبارة الأخيرة فريضة الزكاة.

وبمرور الوقت أصبح نور الدين صديقًا للفقراء، كان يحبهم ويزورهم في مساكنهم، ويعطيهم، ويحميهم، فكانوا-في المقابل-قاعدته الشعبية الحقيقية التي تحفظه وتقاتل من ورائه في ميادين السلم والحرب على السواء.

وكان نور الدين يعيش تجربتهم، بل يتجاوزها إلى مواقع أكثر مسغبة وشظفًا، وفي رواية لابن كثير: «أنه كان عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا»(٨٠).

ويجمع المؤرخون على أن أحدًا من الأمراء لم يكن يجلس في مجلس نور الدين بلا إذن، سوى نجم الدين أيوب، لتقدمه في العمر كما يبدو، وأما الأمراء الآخرون فكانوا يقفون بين يديه، ومع هذا فكان إذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له، ومشى خطوات، وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون، وأقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه، وإذا أعطى أحدًا منهم شيئًا يقول: هؤلاء جند الله، وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق

أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا(٨١). فليس بمستغرب إذًا أن يغدو هؤلاء جيشه المعنوي المعبأ، الذي يضرب بسهام لا تخطىء.

ويبدو هذا التعاطف بين نور الدين وفقراء أمته وكادحيها أكثر ما يبدو خلال هجماته المتكررة على دمشق، فكثيرًا ما كان يخرج إليه هؤلاء يلتمسون عطاءه، فلم يكن يخيب أحدًا منهم(٨٢). وكثيرًا ما كف أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في ضياع المنطقة وبساتينها خوفًا على كدح الفلاحين(٨٣)، وكثيرًا ما أعلن أنه إنما جاء لحماية فلاحي المنطقة «الذين أخذت أموالهم وتتشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج.. وعدم وجود الناصر لهم»، فلا يسعني-يقول نور الدين في رسالة بعث بها إلى زعماء دمشق-«... القعود عنهم والانتصار لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلمًا لهم، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا أحدًا من المسلمين»(٨٤).

ويحدثنا ابن القلانسي كيف أن «بعض قطاعي الخشب في دمشق بادر بفأسه إلى الباب الشرقي فكسر أقفاله، فدخلت قوات نور الدين، حيث قرىء منشوره بإزالة الكثير من المظالم والمكوس، فضج الناس (من التناء والفلاحين والمتعيشين) بالدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه»(٨٥).

والقوائم الإدارية في دولة نور الدين تشير إلى كثير من الأسماء التي لمعت في عصره، ولم يكن أصحابها سوى خدم ومماليك وفقراء(٨٦).

ولم يقف نور الدين عند هذا الحد في تعامله مع أبناء أمته، بل سعى إلى تقديم أوسع الخدمات لهم، وإلى جعل مؤسسات الدولة صالحة لتنفيذ هذه الخدمات، ومدها إلى معظم المرافق، فيما يعد-بحق- قمة إجراءات نور الدين.

لقد امتدت هذه الخدمات إلى مساحات النشاط الاجتماعي كافة، وسعت إلى تغطية الحاجات المختلفة: ابتداءً من قضايا المسكن والملبس والمأكل والجنس، وانتهاءً بمطالب الروح، مرورًا بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية. وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حينًا تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال.. وحينًا عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة، أو الفكاك من الأسر.. وحينًا ثالثًا عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق: كالمارستانات، والملاجئ، ودور الأيتام، والمدارس، ودور الحديث، والخانات، والربط، والجسور، والقناطر، والقنوات، والأسواق، والحمامات، والطرق العامة، والمخافر، والخنادق، والأسوار.. وحينًا رابعًا تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها.. وحينًا خامسًا عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة.

لقد كان نور الدين يرى في (الدولة) جهاز خدمة وإنجاز، لا أداة قسر واستنزاف، فزمانه كما يقول أبو شامة: «مصروف إلى مصالح الناس، والنظر في أمور الرعية، والشفقة عليهم»(٨٧). وعندما دخل دمشق عام ٥٤٩هـ أحسن إلى أهلها، وبنى لهم المدارس والمساجد والربط، ووسع لهم الطرق على المارة، كما وسع الأسواق، وأحاط السور على حارة اليهود وكان خرابًا، وأغلق عددًا من الأبواب وفتح أخرى، وبنى في دمشق مارستانا لم يبن بالشام قبله ولا بعده مثله، وأوقف وقفًا على من يعلم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة لطعامهم وكسائهم، وله أوقاف دائرة على جميع أبواب الخير وعلى الأرامل والمحتاجين، وسمى مال المصالح، ورتب عليه لذوي الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وغيرهم(٩٠). وببناء الخانات في العراق أمن الناس، وحفظت أموالهم، وباتوا في الشتاء في وقاية من

البرد والمطر، وأقام الأبراج على الطرق العامة بين بلاد المسلمين وخصومهم الصليبيين، وجعل فيها من يحفظها، ومعهم الحمام الزاجل، فإذا رأوا أحدًا من الأعداء أرسلوا الطيور، فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلا يبلغ العدو منهم غرضًا(٩١). كما بنى أسوار معظم مدن الشام وقلاعها وجددها كدمشق وحلب وحماة وحمص وشيزر ومنبج وغيرها(٩٢).

وشهدت حلب نشاطًا واسعًا في بناء الحمامات العامة(٩٣)، وحفر القنوات المتشعبة، وإقامة أحواض الماء لتغطية حاجة المحلات المختلفة هناك(٩٤). وعندما دخل نور الدين الموصل عام ٥٦٦هـ وجدها بأمس الحاجة إلى جامع كبير يكون بمنزلة مؤسسة مركزية للعبادة والتعليم، فبحث بنفسه عن موضع ملائم وسط المدينة، وأمر أن يضاف إلى الأرض التي اختارها ما يجاورها من الدور والحوانيت «على أن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه»، وأن يعوضوا عنها تعويضًا عادلاً. وبعد أقل من عامين تم بناء الجامع الكبير الذي أنفق عليه ما يزيد على ستين ألف دينار، وأوقف عليه نور الدين بعض قرى وضياع قريبة من الموصل(٩٥).

ويلخص العماد الأصفهاني جهود نور الدين المتشعبة في مجال الخدمات بقوله: «ولو اشتغلت بإحصاء وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمد. ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته يغني عن خبرها بالعيان»(٩٦). وفي عام ٥٥٢هـ وحدها كلفت الخدمات الاجتماعية التي نفذها نور الدين ميزانية الدولة مائتي ألف دينار(٩٧). ويجمع عدد من المؤرخين على أن سنة ٥٦٩هـ (وهي التي توفي فيها نور الدين) شهدت نماذج من الخدمات الاجتماعية تدعو للإعجاب، وتوضح إلى أي مدى كان يسعى لتغطية حاجات أمته بفئاتها الفقيرة المحتاجة ملبسًا ونفقة وإشباعًا: إكساء الأيتام والنسوة الأيامى، تزويج الأرامل، إغناء الفقراء، ختان الأطفال.

ويعلق العماد الأصفهاني على حملة تلك السنة بقوله: «... حسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فقد زاد على ثلاثين ألف دينار ذهبًا...»(٩٨). وقد بلغ من اهتمام نور الدين بمسألة الضمان أن اتخذ إجراء ضمن به مستقبل أبناء المقاتلين وأحفادهم، فكان إذا توفي أحد أجناده، وخلف ولدًا، أقر إقطاعه عليه، فإن كان الولد كبيرًا استقل بنفسه، وإن كان صغيرًا رتب معه رجلاً عاقلاً يوثق به، فيتولى أمره إلى أن يكبر.. فكان الأجناد(٩٩) يقولون: «هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها»(١٠٠).

* * *

وفي السياق الثقافي والعلمي شهدت دولة نور الدين محمود نشاطًا واسع النطاق، حيث بنيت المدارس ومؤسسات التعليم في كل مكان، وتدفق العلماء والأدباء على بلاد الشام من المشرق والمغرب، ومنحت الضمانات المالية والاجتماعية لشيوخ العلم والطلبة والدارسين، وعقدت المجالس والندوات لمناقشة المسائل والقضايا المختلفة المتعلقة بفروع العلم المختلفة، وقرب العلماء واستقدموا من أقطار المشرق والمغرب، وفتحت أمامهم السبل فغدوا الطبقة الأولى واحتلوا أعلى مصاف.

وكان نور الدين يدرك جيدًا أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسيًا أو عسكريًا فحسب، بل هو-فوق ذلك-مواجهة مذهبية وصراع حضاري، وأنه بدون تأصيل ذات الأمة المسلمة لن تتحقق النتائج الحاسمة، وإننا نلمح في ممارسات نور الدين وتعاليمه وسياساته التربوية سعيًا ملحوظًا من أجل تكوين المواطن المسلم المتوازن، الذي تنمو فيه على خط متواز قدراته الثلاث: الروحية والعقلية والجسدية، التي طالما أكد عليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولقد كان العلماء عند نور الدين في المنزلة الأولى

والمحل العظيم[١٠١]، يحضرهم إلى مجلسه «فيدنيهم.. ويتواضع لهم..»[١٠٢] وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر[١٠٣]. ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزجية للوقت، وترفًا فكريًّا، وتخريجًا نظريًّا للفروع على الأصول، بل كانت نشاطًا جادًّا لمجابهة المشكلات والمتغيرات في ضوء المقاصد الشرعية، وكانت أشبه بـ (لجان برلمانية) متخصصة، تجتمع بين الحين والحين لحل مشكلة ما، أو استصدار تشريع، أو إقرار قانون[١٠٤].

لقد بلغ العلماء والمشرعون في دولة نور الدين حدًّا جعل الأمراء الذين أنزلوا عن القمة ليحل هؤلاء محلهم، يحسدونهم على مكانتهم، «وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم»[١٠٥]. ولم يقف في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الأدبي والعلاقة الودية، ولكنه تجاوز هذا إلى البذل والعطاء، فكان يمنحهم بسخاء، ويقول: «هؤلاء جند الله، وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا»[١٠٦].

وقد وسع نور الدين نطاق الخدمات العلمية للدولة، ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء، ومكن العلماء بما خصصه لهم من أعطيات من أن يتفرغوا لمهامهم العلمية، وبنى في كثير من بلاده مكاتب لتعليم الخط والقراءة، وأجرى على الطلبة والمعلمين الجرايات الوافرة، وبنى مساجد كثيرة، ووقف على من يقرئ بها القرآن[١٠٧]. وفي الجامع الأموي شاهد ابن جبير، الذي زار دمشق بعد سنوات قليلة من وفاة نور الدين، حلقات عديدة لتدريس الطلبة، وكان مدرسوهم يتقاضون على مهمتهم أعطيات ومخصصات كبيرة، وفي الجانب الغربي من الجامع أقام نور الدين زاوية للتدريس، يجتمع إليها طلبة المغرب، ولهم إجراء معلوم من أوقاف كثيرة. كما خُصص لكل سارية من سواري الجامع وقف معلوم يأخذ منه المدرس، الذي يستند إليها، وهو يجتمع بحلقته للمذاكرة والتدريس.. وثمة وقف كبير للأيتام من الصبيان، يتسلم منه معلمهم ما يسد حاجته، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم، «وهذا من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد»[١٠٨]. وكان مدرسو المدرسة الحلاوية في حلب يتسلمون مخصصات تمكنهم من شراء الملابس والدواء والفاكهة، هذا فضلاً عما كان يقدم لهم في المناسبات من طعام ونقود[١٠٩].

وتأست المرأة بالرجل، فراحت تنفق هي الأخرى الأموال الواسعة في بناء المدارس والربط والمساجد، وتعين لها من أموالها الأوقاف، وكذلك أخذ الأمراء يتسابقون في هذا الطريق كل يبني ويعمر ويوقف الأوقاف[١١٠].

ومن أجل ذلك شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطًا لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لمامًا، وتدفق العلماء على حواضر الدولة حلب ودمشق خاصة من أطراف الأرض، وقصدوا الرجل «من البلاد الشاسعة»[١١١]. حتى إن بلاد الشام كانت كما يصفها أبو شامة «خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرًّا للعلماء والفقهاء...»[١١٢].

وكانت وجهة (الهجرة العلمية) لصالح دولة نور الدين، حيث غدت حلب أولاً، ودمشق فيما بعد، هدف الشيوخ والعلماء والدارسين. وقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة فعمل بنفسه على توسيع نطاقها، وراح يكاتب العلماء من البلاد المختلفة، البعيدة والقريبة، ويستقدمهم إليه، ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم[١١٣]، ولم يقتصر الأمر على أرباب العلوم الإسلامية[١١٤]، وإنما شمل-كذلك-مشاهير الأطباء والمهندسين[١١٥].

ومن خلال (المدرسة)، كمؤسسة تعليمية، انطلق نور الدين في تحقيق برامجه التعليمية الواسعة، فانتشرت المدارس في كل مكان من أنحاء دولته

الواسعة، وأصبح النشاط المدرسي سمة من أبرز سمات العصر: عصر التوحيد والمقاومة والجهاد، الذي أريد له أن يكون حركة مسلحة مبطنة بنور البرهان وقوة الكلمة. ومن ثم نجد الرجل ينشط منذ لحظة تسلمه الحكم حتى وفاته لإقامة أكبر قدر ممكن من معاهد العلم: مدارس ومكاتب ودور حديث وربط(١١٦)، وإنفاق المبالغ الطائلة في هذا السبيل، ووقف الأوقاف السخية لضمان استمرار هذه المؤسسات على أداء مهمتها.

(٦) إن الوحدة التي استكمل الناصر صلاح الدين أسبابها، واستثمرها في معركة حطين الحاسمة (٥٨٣هـ) وتحرير القدس ومعظم بلاد الشام وفلسطين، إنما هي تتويج لحلقات سابقة، سهر على بنائها لبنة لبنة قادة سابقون، ما كان أحدهم يسلم الراية لخلفه إلا بعد أن يكون قد قطع شوطًا في إقامة المعمار، ذلك الذي وضع البرسقي أسسه، وارتفع به عماد الدين زنكي، وقوى نور الدين محمود دعائمه.. ثم جاء صلاح الدين لكي يوسعه، ثم ينطلق منه لتحقيق النتائج الحاسمة. وليس من قبيل المصادفة أن يكون الواحد من هؤلاء قد تربى في رعاية من سبقه، وتولى-بدوره-احتضان من يليه: فزنكي نشأ في رعاية ولاة الموصل، البرسقي واحد منهم، ونور الدين محمود تربى في كنف أبيه زنكي، والناصر صلاح الدين حظي بعناية زنكي طفلاً وصبيًّا، وباهتمام نور الدين محمود شابًّا وكهلا. ●

●●●

الحواشي

(١) ينظر: عماد الدين زنكي: ١٣٤ – ١٦٦.
(٢) ينظر: نور الدين والصليبيون. الشرق الأوسط والحروب الصليبية.
(٣) ينظر: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: ١٩٩ – ٢٨٧.
(٤) المصدر السابق: ٢٦٣ – ٢٨٧.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢/٢٢٣ – ٢٢٥.
(٧) الكامل في التاريخ: ١٠/٢٣٧– ٢٣٨، ذيل تاريخ دمشق: ٢١٢.
(٨) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢/٢٢٥، والأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (قسم حلب): ٤٥.
(٩) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢/٢٢٥، تاريخ دمشق: ٢١٢، الكامل في التاريخ:١٠/٢٣٧ – ٢٣٨، المنتخب في تاريخ مملكة حلب: ٢١٨ – ٢١٩.
(١٠) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢/٢٢٥ – ٢٢٦.
A History of the Crusade,11/173,
Histoire des Croisade.1/627,
Zengi and the Fall of ªsa ,1/453
(١١) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢/٢٣٠.
(١٢) الكامل في التاريخ: ١٠/ ٢٣٣ – ٢٣٨.
(١٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢/٢٢٦ – ٢٢٧.
(١٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢/٢٢٧ – ٢٢٨، تاريخ ابن الفرات (مخطوطة): ٢/٨٥ – ٨٦.
(١٥) الكامل في التاريخ: ١٠/٢٣٧ – ٢٣٨، زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢/٢٢٥ – ٢٢٨، تاريخ دمشق: ٢١١ – ٢١٢، تاريخ ابن الفرات: ٢/٨٨، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: ٨/١١٣ – ١١٤.
A History of the Crusade,11/173,
Histoire des Croisade.1/627,
Zengi and the Fall of Edessa,1L/453
(١٦) الكامل في التاريخ ٢٣٨ –٢٣٧ /١٠:
(١٧) الكامل في التاريخ: ١٠/٢٣٧ – ٢٣٨، زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢/٢٢٩ – ٢٣٠، تاريخ دمشق: ٢١١ – ٢١٢.
(١٨) بغية الطلب في تاريخ حلب (مخطوطة): ٤/ ٢٧٧، تاريخ دمشق: ٢١١ – ٢١٢، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: ٨/١٣٣ – ١٣٤.
(١٩) تاريخ دمشق: ٢١٢.
(٢٠) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢/٢٣٠ – ٢٣١.
(٢١) تاريخ دمشق: ٢١١ – ٢١٢.
(٢٢) تاريخ دمشق: ٢١١ – ٢١٢، بغية الطلب: ٤/٢٧٧.
(٢٣) الحروب الصليبية:١/٣٤٥، ٤٨٥ – ٤٨٦.
Zengi and the Fall of Edessa,1/453,
A History of the Crusade,1/631.

(٢٤) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ٣٧:

(٢٥) الكامل في التاريخ: ٢٤٨/١٠، زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢٤١/٢

(٢٦)

A History of the Crusade

١١/١٨٢

(٢٧) الكامل في التاريخ: ٢٤٧/١٠، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٣٧، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٣٦/١.

Saladin and the Fall of the Kingdo, Jerusale,.49,A History of the Crusade,1/667-668.

(٢٨) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٣٧.

(٢٩)

A History of the Crusade,11/182

(٣٠) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٣٧.

(٣١) الكامل في التاريخ: ٢٤٨/١٠، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٣٢ – ٣٤، ٣٧ – ٣٨، زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢٢٥/٢ – ٢٣٤.

(٣٢) طبعة الدار العلمية، بيروت، ١٩٧١.

(٣٣) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٣٩.

(٣٤) الكامل في التاريخ: ٢٥٢/١٠، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٣٩.

(٣٥) الكامل في التاريخ: ٢٥٢/١٠ – ٢٥٣، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٣٩ – ٤٢.

(٣٦) الكامل في التاريخ: ١٠/ ٢٥٣

(٣٧) زبدة الحلب من تاريخ حلب:٢٥٩/٢ و

A History of the Crusade,11/197

(٣٨) تاريخ دمشق: ٢٥٨ – ٢٥٩، الكامل في التاريخ: ٢١/١١ – ٢٢، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٥٩ – ٦١، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٨٧/١ – ٨٨.

A History of the Crusade, 11/203- 205

(٣٩) المصادر والمراجع السابقة، الصفحات نفسها.

(٤٠)

A History of the Crusade,: 11/213,
A History des Croisade,11/97

(٤١)

A History of the Crusade,11/253,
Zengi and the Fall of Edessa,460-461

(٤٢) الكامل في التاريخ: ٤٠/١١، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٦٦ – ٦٧.

(٤٣) The Crusades in the East p.153

(٤٤) تنظر الصفحات: ١٤٨ – ١٥٧ من الكتاب المذكور.

(٤٥)

A History of the Crusade,11/238.

(٤٦) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٦٩.

(٤٧)

A History of the Crusade,11/238.

(٤٨)

A History of the Crusade,11/238.

(٤٩) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٦٩، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٩٧/١

(٥٠) ذيل تاريخ دمشق: ٢٨٤.

(٥١) الكامل في التاريخ: ٤١/١١، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٦٩ – ٧٠.

(٥٢) المصدران السابقان، الصفحات نفسها.

(٥٣) تاريخ دمشق:.٢٨٠، الكامل في التاريخ: ٤١/١١، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ٦٩

A History of the Crusade,11/238.

(٥٤) تاريخ دمشق.٢٨٠:

(٥٥)

Histoirdes Crusade,11/192.

(٥٦) لمزيد من التفاصيل، ينظر عماد الدين زنكي: ١٣٤ – ١٦٦.

(٥٧) تاريخ دمشق: ٣٣٦، الكواكب الدرية: ٢٥، سنا البرق الشامي: ١٢٠ – ١٢٢، ١٤٦ – ١٤٧، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٥٨٢/١ – ٥٨٣، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢٦٩/١.

(٥٨) البرق: ١٢٠ – ١٢١.

(٥٩)

Nurad-din p.785 - 786.

(٦٠) صبح الأعشى: ٥/٤.

(٦١) الكواكب الدرية: ٢٥.

(٦٢) المصدر السابق: ٧٠.

(٦٣) المصدر السابق: ٢٥.

(٦٤) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٦٦.

(٦٥) المصدر السابق: ١٦٨.

(٦٦) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣٣/١/١.

(٦٧) المصدر السابق.

(٦٨) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣٣/١/١، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٦٨، البداية والنهاية: ٢٨٠/١٢.

Nurad-din p.843-847.

(٦٩) الكامل في التاريخ: ٤٤/١١.
(٧٠) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٦٧.
(٧١) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٣١٥/٢.
(٧٢) تاريخ دمشق: ٣٢٨ – ٣٢٩، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: ٢٢٣/٨، ٣٠٦، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٠/١/١، البداية والنهاية: ٢٧٨/١٢.
(٧٣) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١/١/ ٣٨ – ٤١.
(٧٤) تاريخ دمشق: ٣٥٢ – ٣٥٣.
(٧٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٣٢٥/٢.
(٧٦) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٧٩/١–٤٨٠.
(٧٧) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٣٣٤/٢.
(٧٨) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٣٣/١، ٥٢٢ – ٥٢٣، عيون الروضتين: ٢٣٤، مخطوط بالمتحف البريطاني – تفصيل لبعض المكوس الملغاة نقلاً عن ابن أبي طي، هامش ١: ٥٢٢/١.
(٧٩) سنا البرق الشامي: ١٤٣.
(٨٠) البداية والنهاية: ٢٧٨/١٢.
(٨١) البداية والنهاية: ٢٨١/١٢، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٧٢ – ١٧٣.
(٨٢) تاريخ دمشق: ٣١٠.
(٨٣) المصدر السابق: ٣٠٨ – ٣٠٩.
(٨٤) المصدر السابق: ٣٠٩.
(٨٥) المصدر السابق: ٣٢٧ – ٣٢٩.
(٨٦) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٧٥ – ٦٧١، الكامل في التاريخ: ٤٠٧/١١، زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٩/٣، البداية والنهاية: ٢٨٢/١٢.
(٨٧) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣٤/١/١.
(٨٨) سنا البرق الشامي: ٥٦.
(٨٩) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: ٣٠٦/٨، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٠/١/١.
(٩٠) البداية والنهاية: ٢٧٨/١٢، الكواكب الدرية: ١٧، الأعلاق (قسم حلب): ٨٥.
(٩١) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٧١.
(٩٢) المصدر السابق: ١٧٠.
(٩٣) الأعلاق (قسم حلب): ٢٩٢ – ٢٩٩.
(٩٤) المصدر السابق: ١٤٤.
(٩٥) الكامل في التاريخ: ٣٦٤/١١، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٧٠، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: ٢٨٢/٨، ٢٩٣، ٣١٠ – ٣١١، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ٢٤٩/١٠، سنا البرق الشامي: ٩٨.
(٩٦) سنا البرق الشامي: ١٤٤.
(٩٧) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣٨/١/١ – ٤١.
(٩٨) سنا البرق الشامي: ١٤٣.
(٩٩) يلاحظ أن الذين أقطعوا هنا هم الأجناد وليس القادة أو الأمراء.
(١٠٠) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٦٩.
(١٠١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢٨٣/١.
(١٠٢) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٧١ – ١٧٣، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ٢٤٩/١٠، البداية والنهاية: ٢٨١/١٢.
(١٠٣) ينظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢٨٣/١، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٧١ – ١٧٣.
(١٠٤) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤١/١/١ – ٤٤.
(١٠٥) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٧١ – ١٧٢.
(١٠٦) البداية والنهاية: ٢٨١/١٢، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٧٣.
(١٠٧) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٧٢، البداية والنهاية: ٢٧٨/١٢.
(١٠٨) رحلة ابن جبير: ٢٤٥، ٢٥٧.
(١٠٩) الأعلاق الخطيرة (قسم حلب): ١١٠ – ١١١.
(١١٠) رحلة ابن جبير: ٢٤٨.
(١١١) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٧١ – ١٧٢.
(١١٢) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣٤/١/١.
(١١٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢٩٣/٢ – ٢٩٤، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢٨٣/١.
(١١٤) للاستزادة ينظر: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: ٢١٩/٨ – ٢٢٠، ٢٩٤، الأعلاق (قسم حلب): ٩٨ – ١١٥، زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢٩٣/٢ – ٢٩٥، سنا البرق الشامي: ١٣٤ – ١٣٥، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٥٤٤/١ – ٥٤٦، الدارس في أنباء المدارس: ٤٠٨/١ – ٤١١، ١١٤/٢ – ١١٥، ١٥٣، أعلام النبلاء: ٣٠٥/٢ – ٣٠٨، ٢٣٠/٤، ٢٤٨.
(١١٥) ينظر: طبقات الأطباء: ٦٣٥ – ٦٣٧، ٦٦٩ – ٦٧٦، ٦٨٢، سنا البرق الشامي: ١٤٢، تاريخ دمشق: ٣٥٧.
(١١٦) ينظر: سنا البرق الشامي: ٥٦، ١٤٤، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣٤/١/١، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: ١٧٠، ١٧٢، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ١٨٥/٥، زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٢٩٣/٢ – ٢٩٥، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢٨٢/١، ٢٨٤.

المصادر والمراجع:

ابن الأثير: عزالدين محمد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ).
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تح. عبدالقادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٣م.
- الكامل في التاريخ، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٦م.

ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد الخزرجي (ت ٦٦٨هـ)
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤هـ).
- رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م.

ابن الجوزي: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ).
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٨هـ.

ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد (. ٦٨١هـ).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٨م.

خليل: عماد الدين.
- الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (٤٦٥ - ٨١٢هـ = ١٠٧٢ - ١٤٠٩م)، مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٩٨٠م.
- عماد الدين زنكي، الدار العلمية، بيروت، ١٩٧٢م.

سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف قزأوغلي (ت ٦٥٤هـ).
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٩٥١م.

أبو شامة: شهاب الدين عبدالرحمن ابن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ).
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح. محمد حلمي محمد أحمد، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٢م.

ابن شداد، عزالدين محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ).
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، (قسم حلب) تح. سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٣م.

الطباخ: محمد راغب بن محمود الحلبي.
- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية، حلب، ١٩٢٥م.

ابن العديم: كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله (- ٦٦٠هـ).
- بغية الطلب في تاريخ حلب، مخطوطة مصورة في دار الكتب المصرية، تحت رقم ١٥٦٦.
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح. سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٤م.

العريني: السيد الباز.
- الشرق الأوسط والحروب الصليبية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.

العماد الأصفهاني: محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ).
- سنا البرق الشامي مختصر البرق الشامي، اختصره قوام الدين الفتح ابن علي البغدادي (ت ٦٤٢هـ)، تح. رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م.

ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم المصري (ت ٩٠٧هـ).
- تاريخ الدول والملوك، مخطوطة مصورة في دار الكتب المصرية تحت رقم: ٣١٩٧

ابن قاضي شهبة: بدر الدين (ت ٨٧٤هـ).
- الكواكب الدرية في السيرة النورية، تح. محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م.

ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥هـ).
- ذيل تاريخ دمشق، تح. آمد روز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ).
- البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٢م.

النعيمي: عبدالقادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ).
- الدارس في أنباء المدارس، تح. جعفر الحسني، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٤٨ - ١٩٥١م.

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ).
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح. جمال الدين الشيال، مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٣م.

Eli'sseeff: Nikita:
Croisade,Institut Francais De Damas - 1967.
Prince Musulman De Syrie Au Temps Des Nur Ad-di,Grand
Grousset: Rene
Histoire Des Croisades et du Royaume France Des Je'rusale,Paris - 1934 - 1936
Lane - Pool: S.
Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusale,London - 1898.
Runciman: Steve.
A History of the Crusade,Cambridge 1957
Setton: K.M.
A History of the Crusade,Pennsylvania- 1955 - 1958
Stevenson: W.B.
The Crusaders in the Eas,Cambridge - 1907